

CHRONIQUES PHILOSOPHIQUES

DIDIER ANZIEU

شهرية الفلسفة

الاشعورية ، إلى فقد علم الأخلاق آخر أركانه الثابتة . وقد أفرغت هذه الأزمة الأخيرة التي تولى نيتشه الحديث عنها قلوب الفلاسفة ، حتى إنهم لزموا الصمت حيالها ؛ ونجدهم في فرنسا قد تواروا خلف ثلاثة من الأدباء هم : أندريه جيد ، وأندريه مالرو ، والبير كامو .

بل إن هناك ما يهدد وجود الفلسفة نفسه . وهل كان من الممكن أن يحدث غير ذلك ؟ فكل مرة يكون الانسان فيها موضوع سؤال ، تكون الفلسفة هي أيضاً موضوع سؤال . ما مصيرها ؟ وما مصيره ؟ إنها مشكلة واحدة . والفلسفة كثيراً ما استشهدت بالناس ، أما الآن فالانسان هو الذى يستشهد بالفلسفة . إن هذا الاستعراض الفلسفى يرمى إلى تقديم الأدلة والاستشهادات . وقد روعى في اختيار موضوعاته أن تكون متصلة بهذا الموضوع المركزى : استمرار الانسان أو تحوله ؟

لا يمكنك أن تتصور أو تدرك موقف الفلسفة المعاصرة الا على صورة أزمة من الأزمات . فالفيلسوف لم يعد يعرف ما هو عليه بل ما هو فاعله ، وقد طغى الوجود عنده على الفكر . ويحتاز العالم بأسره اليوم تجربة ديكرت ؛ فقد بل قراءة جميع الكتب وارتداد كل البلاد ، وأخذ يشك في الآراء جميعها والمعارف كلها ، ورعزع الفروق الاجتماعية ، وانطلق يبحث في صفاء ذهن مجرد من الأمل عن نقطة ثابتة يستطيع أن يحول منها مجرى الكون ، وأن يخضع لها نظام أفكاره . إن الفلسفة تحتاز أزمة محكمة ؛ فأسس المنطق بدأت أزمتها على أثر تقدم العلوم واستكشاف نظريات الهندسة غير الاقليدية ونظرية إنشتين . أما أسس الجمال فقد عرفت الأزمة منذ تسرب مذهب السيريالزم إلى الفنون . وأخيراً أدى التحليل الذى قام به ماركس وفرويد على التوالى لعمليات الحياة الجماعية والفردية

* هذا المقال كتب خاصة لجهة « الكاتب العبرى » .

بيان حالة علم النفس المعاصر

كان طالب الفلسفة قبل الحرب شديد الكلف بعلم ما بعد الطبيعة . وكان يعتبر مسألة طبيعة الأفكار وطبيعة الحكم مسأله جوهريه . وكان يدعى أيضاً أنه يرى العالم على صورة خاصة يريد ان ينقلها إلى غيره . وكان أستاذه فى ذلك أحد اثنين برنشفيج أو برجسون . وكان يرى أن فضيلة التنزه عن الغرض تتفق خير الاتفاق مع المجادلات الفلسفية وحدها ، حتى لقد كان يفخر عند ما يصبح استاذاً بأنه لم يعلم أحداً شيئاً كان ذا فائدة فى الحياة العملية .

وعلى أثر نشوب الحرب وما ينتجم عنها بلا شك من عودة إلى كل ما هو إنسانى ، ظهر مثل أعلى آخر للفيلسوف ألا وهو السيكولوجى العملى ، Le psychologue concret ، فوجد عدداً متزايداً من الشبان يفتنون على دراسة الطب والفلسفة معاً ، أو هم يريدون على الأقل أن يتلقوا ثقافه سيكولوجية تربوية . فهم يشعرون فعلاً بحاجتهم أولاً إلى الطرق الفنية التى تضمن لهم النجاح فى ممارسة مهنتهم . وبحاجتهم ثانياً إلى الدقة العقلية التى تجعل من الفلسفة علماً

صحيحاً . وأساتذتهم فى ذلك هم الأطباء النفسانيون وعلماء التحليل النفسانى أمثال جانيه وفالون ولافورج ولاجاش وجوييب بوتونيه وبياجيه ولاكان . فتراهم ينظمون الاجتماعات مع أطباء الامتياز فى المستشفيات السيكياتريه ، ويطلعون على طرق التوجيه المهي .

ما معنى مثل هذا التطور ؟ إن الفلسفة آخذة شيئاً فشيئاً فى الابتعاد عن دراسة الكون والروح أو الله ، واتجهت إلى دراسة الانسان أى إلى الانثروبولوجيا . لقد ورثنا بدون شك عن الحكمة القديمة القاعدة الذهبية القائلة : « اعرف نفسك بنفسك » . ولكن هذه القاعدة التى أملتأها أغراض خلقية ، بقيت نظرية مجردة . والقاعدة الجديدة لعلم النفس الحديث هى معرفة الغير معرفة محسوسة Concrete وقد دلت البحوث الأخيرة على أن الطفل الصغير يشعر بوجود الغير قبل ان يشعر بوجوده هو نفسه . والظاهرة الأساسية فى الحياة البشرية هى أن وجودنا حادث بين أشخاص آخرين ، ومن ثم نشأت النظرية الوجودية لجان بول سارتر .

لا تزال نظرية ليناضل وسط الحزب الشيوعي . وقد نشبت منازعات مذهبية بينه وبين ذلك الحزب قبل الحرب مباشرة ، وأخيراً قسله الألمان لنشاطه في المقاومة السرية أثناء الاحتلال . وكان بوليتزر أول من كشف وسط فيض طرق علم النفس الجديدة . عن الطرق الثلاث التي تعتبر أكثر الطرق إدراكاً للحقيقة وأعظمها مستقبلاً ألا وهي : التحليل النفسي ، وعلم النفس الشكلي ، وعلم النفس السلوكي .

ومنذ ذلك الوقت صادف علم النفس الشكلي (ويسمى بالألمانية Gestalttheorie) أعظم نجاح ، وأدى إلى ظهور سلسلة من أهم المؤلفات للاستاذ بول جيوم ، حتى أصبحت كراسي الكليات ومعامل البحوث مقصورة عليه . فبفضل فكرة « الشكل » أي الكل أو المجموع أدت هذه الطريقة خدمة جليلة وذلك باقصاء علم النفس الميتافيزيقي التقليدي الذي كان ينسب حياة العقل إلى ذرات ذهنية تشبه في تركيبها وتجمعها المركبات الكيميائية . إن « الكل » يحتوي على أكثر مما يحتوي عليه أي جزء من الأجزاء ، ذلك هو جوهر نظرية Gestalttheorie . إن القطعة

كانت الفلسفات السابقة جميعها فلسفات عزلة تقريبا ، وكانت دراسة الميتافيزيقا مقصورة على طبقة خاصة . أما علم النفس الحديث فيريد أن يكون كالحضارة الصناعية ووسائل النقل فيها ، في متناول الجميع . فهو يهتم بالطفل وبالرجل البدائي ، وبالمصاب بمرض عقلي وبالعاقل ، وهو ينفذ إلى كل البنيات وكل الأعمار وكل الأجناس . أليست معرفة الغير خير وسيلة للفرد لكي يندمج في أسرته ومصنعه ووطنه ؟ فالفيلسوف الحديث لا يحلم في أن يكون عالماً في المنطق أو شاعراً ، بل في أن يصبح طبيباً ، طيبب العقول والجماعات .

إن أزمة علم النفس الحالية تطفئ على كل ما عداها من أزمت ! إن تعلمنا خلقياً صحيحاً لا يكون مثلاً مستطاعاً إلا إذا درست طبيعة الانسان . وقد بدأت هذه الأزمة منذ عشرين عاماً على أثر ظهور كتاب بوليتزر « نقد أسس علم النفس » Politzer « Critique des fondements de la psychologie » الذي لم يظهر منه إلا جزء واحد من ثلاثة الأجزاء التي أعلن عنها . وكانت فكرة علم النفس العملي تسيطر على بوليتزر بقوة إلى درجة أنه عدل عن بحوثه التي كانت

تطبق على الانسان نتائج الاختبارات التي تجرى على القروذ والجردان . وفى الحالة الثانية يكون الاتجاه روحياً وتقف نظرية Gestalttheorie عند حد الأوتوماتسم أى الآلية الذاتية . وعلم النفس الحديث لا يخرج عن إحدى اثنتين : المادية أو الروحية . وميزة علم النفس السلوكي Behaviorism أنه ينتصر من غير ما تردد للحل الأول . وقد عرّف الأمريكي واتسون قاعدة هذا الحل ، وهى أن النشاط الانساني كله ناتج عن الحصاص العام للخلية الحية . وهو يحدد دراسة هذا النشاط بدراسة أنواع السلوك التي تظهره ، متجاهلاً النظرية القائلة بأن هناك ظواهر خفية عن الشعور تتفق مع أنواع السلوك هذه . وقد استتج الروسى بإفلوف من ذلك منهجاً عاماً يفسر به السلوك ابتداء من الفعل المنعكس المكيف Reflexe conditionné ، فهو يرى أن حياة العقل تتكون من مقاومة الأفعال المنعكسة البدائية وصدّها أو تحويلها إلى موضوعات جديدة . وما نمو الحياة العقلية إلا تجمع وتنوع هذه الأفعال المنعكسة .

إن هذه النظرية تتضمن منهجاً ممتازاً وتشمل فرضاً فيه مجازفة : أما

الموسيقية شئ ونغماتها المتعاقبة شئ آخر ، وكل نغمة داخلية فى القطعة أكثر منها لو كانت وحدها ؛ فالنغمة تتغير بتأثير النغمات التي تسبقها والتي تعقبها . فهى تساهم فى مجموع القطعة الموسيقية . والادراك كذلك هو نظرة إجمالية كلية ، لا نظرة إلى التفاصيل متراصة تحت المجال البصرى . ولاتدرك أول ما تدرك العناصر غير المنتظمة بل الصور الشبيهة بالأشكال الهندسية الأولية . ويقوى الادراك وينمو بنظم الأشكال الأولية داخل بناء Structuation تزيد دقته شيئاً فشيئاً . كذلك الغريزة والعادة والذاكرة والتفكير واللغة كلها منظمات إجمالية لأفعال وذكريات وأفكار ، تتميز بالتحامها وتداخلها ، إنها إطارات تكيف ما تحيط به . وعلى ذلك يكون الذكاء هو القدرة على الترتيب والتصنيف . فلكل يسبق دائماً الأجزاء .

والصعوبات التي تلقاها تلك النظرية خاصة بـ « الأشكال » ^{منشآت} Structures طبيعية ناتجة عن الأشياء ذاتها ، أم هى بالعكس نتيجة نشاط العقل ويجب اعتبارها قوى توازنية ؟ إن المشكلة على جانب كبير من الأهمية . فالاتجاه فى الحالة الأولى اتجاه مادى ويكفى أن

شخصية المحلل خلف الحقيقة بجده يخوض بشخصيته كلها في سبيل الكشف عن هذه الحقيقة . وهو أبعد من يقيم بينه وبين الأشياء حاجزاً من الاغفال وعدم الاكتراث ، بل يكون الاتصال مع الغير وجهاً لوجه ، فنجد الاثنين الطبيب والمريض يكونان مجموعة من القوى الفاعلة الاتزان ، ومجموعة من الاتصالات الخفية يحاول الطبيب بها أن يظهر المريض من شياطينه الداخلية ومن خطاياهم محملاً نفسه وزرها بطريقة رمزية ، ويحدد المريض فيها قوة المثل العليا التي كان يتصورها ، فيعكسها على الطبيب .

فالمحلل والمريض أشبه بشخصيتي مأساة يحاول كل منهما فيها أن يقرر مصير الآخر . والعلاج هو نوع من المغامرة تنتهي بأن يكسب المريض الذي خلت مشاكله الخاصة صداقة معالجته وأن يحتفظ بها ؛ أما المريض الذي يفضل على مجهود العلاج التواطؤ مع دائه ذاته ، فهو يحول على الطبيب البغض الذي يشعر به نحو نفسه . فمن هذه الوجهة يعتبر التحليل النفسي أثراً فنياً أكثر منه علماً ، وهو بذلك يؤيد كل التأييد رأي القائلين بأن علم النفس الحقيقي كان يشاهد لا في آثار الفلاسفة بل في القصص

المنهج فهو أن تراقب الغير وهو يعمل بدلاً من أن تحلل ذاتك ، إن في ذلك خير وسيلة لمعرفة الإنسان . أما الغرض فهو أن تشبه أرقى وجوه النشاط العقلي بطرق تربوية dressage أولية . ألم يُعجز بافلوف اختباراتهما كلها تقريباً على الكلاب ؟

لهذا السبب نرى أن التحليل النفسي هو وحده بين الطرق الثلاث لعلم النفس الحديث الذي يقربنا حقيقة من عالم المحسوس . وقد أفرد له بوليتزر الجزء الأول والوحيد من مؤلفه . ومنذ فرويد أخذ التحليل النفسي ينمو ممواً مطرداً سريعاً جعل منه علماً قائماً بذاته يضم عدداً كبيراً من المذاهب ومجموعة من المناهج . إنه علم لأنه يدرس عادة بتحليل تعليمي didactique ، ولأنه استكشف مجموعة من الحقائق المتأسكة كالليل الجنسي عند الأطفال وعقدة أوديب ورمزية الأحلام والعادات الشعبية folklores ومنشأ الأمراض étiologie وعلاج الأمراض العصبية névroses . غير أن الناحية المشتركة بين هذا العلم والعلوم الأخرى هي صحة نتائجه فقط . إن الروح التي يتطلبها من العالم تختلف كل الاختلاف عن غيرها . فبدلاً من أن تتلاشى

الجنسية نموا ناقصاً وتثبيتها عند مرحلة الطفولة . وقد حملت دراسة حالات النرجسية - أو عشق الذات - فرويد على التفكير في الناحية الأخرى من الغريزة الجنسية ، وهي ليست سوى غريزة حب البقاء . كما اتضح أخيراً ، أن القلق الشديد وفقدان التوازن ، والمغالاة في التهجم أو في النكوص ، هي إحساسات لا يمكن أن يخلو منها الحب érotisme . فكان لا بد أن يهتدى فرويد إلى الحقيقة الواقعة وهي أن الانسان يحمل في نفسه من الحقد بمقدار ما يحمل من الحب ، وأن روح التدمير مستقرة فيه . إن غريزة الموت وغريزة الحياة لتسكنانه وكتاهما مزدوجة التأثير ، فتارة تتجهان نحو الغير وطوراً تنحصران في الشخص ذاته . فغريزة الحياة هي حب بالنسبة للغير وبقاء بالنسبة للذات . وغريزة الموت تتحول من البغض إلى القتل في الحالة الأولى ، ومن سأم الحياة إلى الانتحار في الحالة الثانية . وتفسر الشخصية عندئذ بالنزاع بين الاتجاهين . ألا تنحصر قصة أى إنسان في حياته وموته ؟ أو ليست قصة الانسانية كما رآها الفيلسوف اليونانى ديمقريط منذ خمسة وعشرين قرناً هي قصة النزاع بين الصداقة والعداوة ؟ إن اختلال

والتمثيلات وفي ما كان يلهم به قادة الجماهير . وإذا لم يكن علم النفس قد أفاد حتى الآن شيئاً ، فقد أتيج له اليوم كسائر العلوم الأخرى مجال التطبيقات العملية ، وقد استطاع بواسطة التحليل النفسى أن يسترد قدرته الخاصة ويحدث أثره المرجو فيسلم للعلم آخر ما امتنع عليه من حصون ، ألا وهو القلب البشرى . وأول نقطة ملحوظة في هذا التقدم الأخير للتحليل النفسى هو التوسيع الذى أدخله فرويد نفسه على نظريات أيام الشباب . والكتاب الذى ظهر منذ عام لجولييت بوتونيه وعنوانه «القلق الشديد» *L'Angoisse* يعتبر كشفاً في هذا الباب بالنسبة لجمهور المثقفين . فهو يتضمن صورة كاملة للغرائز . رسمها فرويد قبل موته بأيام ولم تسكد تنشر . كان فرويد في أول أمره يرجع حياة العقل اللاشعورية كلها إلى مظاهر الغريزة الجنسية فحسب أو إلى محاولات استخفافها أو التعويض عنها ، بل قد اكتشف أيضاً أن هذه الغريزة تستقر في الفم ثم في الشرج قبل أن تتركز في الأعضاء التناسلية . والانحرافات الجنسية التى يروى التاريخ والأدب أشلة شهيرة عنها ترجع إلى نمو الغريزة

غير ذات ضرر ، وإذا كان يحدث نفسه أن ليت له لم يرتكب هذه الغلطة مع معرفته بأنه مرتكبها ، وإذا كان يود أن يعمل ألا يكون ماضيه ما كان ، فهو يتحول من مأزق خلقى ليقع فى حصار نفسى obsession ، ويشتهد مقتله شيئاً فشيئاً وينصبّ إما على نفسه وإما على الآخرين ، وفى الحالة الأولى يعذب نفسه مبالغاً فى تعذيبها ، وبصبح سارقاً أو قاتلاً ليعاقب ذاته بهذا التدهور الخلقى ، ثم ينتهى به الأمر إلى الانتحار ، وفى الحالة الثانية يحمل الآخرين تبعه خطئه وحقده ، ويرى العالم كله شريراً ويعتبر نفسه مضطهداً فيعزم على رد الشر بالشر ثم يتردى فى أعنف حالات الجنون . وهكذا يُسبغ الطب النفسانى معنى جديداً على العقيدة القديمة التى كانت تعتبر الجنون عقاباً من الآلهة .

وأعظم ناحية من نواحي التقدم فى التحليل النفسانى تشاهد فى هذه الطريقة . فالطريقة التحليلية تكاد تختفى كلية لتحل محلها الطرق التأليفية synthétiques . فعلاً بالطريقة الأولى يكفى المريض أن يستعيد ذكريات طفولته التى كان يحرص أشد الحرص على إخفائها ، وأن يلاحظ أن اختلاله

التوازن النفسى لا يكون حتماً نتيجة انحراف جنسى . فالعنف ضرورى لتكوين الرجل ، غير أن الحب يجب أن يتغلب على العنف . إن الغرائز لا تمحوها تربية صالحة ؛ فبعضها تظل كامنة إلى أن يأتى يوم تنفجر فيه ، غير أن التربية تخضع تلك الغرائز لغرائز أخرى . ونحن نجد فرويد يفعل كما فعل أفلاطون فيما مضى ، نراه يحشد القوى ليثير من جديد معركة إيروس وثاناتوس . فالفيلسوف الحق مثل الطبيب الحق ، يريد كلاهما أن يشفى الإنسانية من الموت .

إن البغض الآن أهم موضوع يدرسه علماء التحليل النفسانى . وقد أفرغ له باروك سيدير المستشفيات النفسائية بمدينة شارنتون كتاباً له ظهر حديثاً عنوانه « انفعالات البغض والاجرام » Réactions de haine et de culpabilité ويرمى هذا الكتاب بطريقة غريبة إلى إقامة الدليل التجريبي على وجود الضمير الخلقى Conscience morale وقيمه . فكثير من المرضى يرجع مرضهم إلى غلطة شخصية قد تكون أحياناً وهمية صرفة ، يكفى أن يشعر الضمير أنه خالف نفسه . وإذا كان المذنب لا يتمثل غلطته كما يجب ليجعل منها غلطة

أراء عالمي الطب النفساني السويسريين يونج وبودوان الذين كانا يقولان بأن الصور مراكز نشاط وأنها توجد على النمط نفسه عند كل البشر. فمن يملك زمام مخيلته يملك زمام إرادته. وكان ذلك فاتحة عهد جديد للنقد الأدبي فيما هو خاص بالشعراء. بدأه باشلار Bachelard ومارى بونابارت بكتابتها عن بو، وبودوان بكتابه عن هوجو. ليس في الفلسفة إلا أزمة واحدة وإن تعددت مظاهرها، ولكنها أزمة من نوع جديد؛ فليس الأمر كما ألفنا أمر حضارة تنهار وأخرى تقوم على أنقاضها بل حضارة واحدة تسود العالم اليوم. والمشكلة أن نعرف هل شكل هذه الحضارة الذي لا مفر منه كفيل بالبقاء. والمشكلة الخاصة التي يواجهها علم النفس هي أن يهيئ الإنسان للتكيف مع الآلات ووسائل الانتقال وأدوات التعامل بالأوراق المالية instruments fiduciaires، ونظام الحياة وكل ما أبدعه هو نفسه. إن الإنسان يحيا الآن حياة صبي الساحر الذي فتح على نفسه ثغرة لم يستطع أن يسدها، وأصبح لا سلطان له على الأشياء. وإن الضرورة لتدعو الإنسان اليوم إلى استعادة زمام الحضارة

النفسى مرتبط بواحدة منها. غير أن الوقوف على أسباب المرض قلما يساعد المريض على التخلص من عادات تأصلت فيه مدة طويلة. إن مجرد استيقاظ الوعي لا يغير حياة شخص ولا يرده إلى الحالة الطبيعية. لا بد أولاً أن يعطى القدرة على الحياة. إن التحليل النفساني داخل غرفة الطبيب لا يساعد المريض على أن يتكيف التكيف الصالح مع بيئته الحقيقية. أما الطرق التأليفية فهي ترمى بالعكس إلى إعادة تكيف المريض Réadaptation مع بيئته، مستغنية في حالة الضرورة عن اطلاع المريض على أسباب مرضه. إذا كانت الصحة العقلية أو المرض العقلي نوعاً من توازن قوى واختلالها، فواجب الطبيب أن يقر النظام بين هذه القوى. وخير وسيلة ناجعة هي التأثير بواسطة أحلام اليقظة الموجهة على الصور العقلية images mentales التي تعتبر رموزاً لتلك القوى: صورة الأب والأم، صورة جسد المريض نفسه. صورة الرجل الأمثل والمرأة المثلى. صورة الطاغية، صورة زوج الأب الخ... وقد أطلق ديزواي Desoille على هذه الطريقة اسم حلم اليقظة rêve éveillé وعرضها في مؤلفاته. وهو يحقق بذلك

والايتيان بما يحقق تقدماً جديداً . في النوائب والشدائد . فالحل الوحيد هو مقاومة البلاء أشد مقاومة ولو كان هذا البلاء عقاباً من السماء أو فترة محتومة من سير الأمور . وإذا كان العالم مصاباً كما هو اليوم ، فلا بد للفيلسوف أن يضل إذا ابتعد عن علم النفس المحسوس ؛ فمن حقه أن يكون الطبيب المعالج لهذا المرض .

والايتيان بما يحقق تقدماً جديداً . يدرس البير كامو في قصته الأخيرة نفسية سكان مدينة اجتاحتها الطاعون ، ثم يسائل نفسه عن خير موقف يجب اتخاذه . من السهل أن يكون المرء تقياً في عصور الرخاء والرفاهية ، أما الصعوبة فتتفشأ عند ما يحاول المرء أن يقيم على ورعه وتقواه

انقلاب داخل المسيحية : فلسفة الأب تيلار دي شاردان

لم تعد المسيحية تلك الفلسفة الصوفية التي كانت تفصل الانسان فصلاً تاماً إلى جزأين غير متجانسين : الروح والجسد ، محملة هذا الأخير عبء كل الخطايا واللعنات ، مبشرة الأول بالخلاص والنعمة والمجد . لم يعد الانسان هذا الإله المغضوب عليه الذي سقط من السماء ليعيش منفياً على أرض غريبة . ولم يعد المسيحي يقف نفسه على حياة التأمل ، بل أصبح له وباسم الدين نفسه أن يجارى العصر في حركته واضطرابه ، وأن يكون في طليعة التقدم المادى والنهوض السياسى . إنه يشعر بتمسكه بالأرض التي خرج منها شيئاً فشيئاً ، فهو يعد العدة ليتيح للانسانية أن تتجاز مرحلة جديدة من مراحل التطور البيولوجى ، ويجعل

من الممكن La parousie أو عودة السيد المسيح إلى ملكه ثانية ، كما تنبأت بذلك الكتب المقدسة . والأب تيلار هو الذى يريد أن يحقق هذا التكيف الضرورى للمسيحية مع العالم الحديث . وهو فى مراجعه واستشهاداته عالم لا رجل لاهوت . والأب تيلار مدير البحوث فى مركز البحث العلمى القومى Centre Nationale de la Recherche Scientifique وهو مدير المعمل فى مدرسة الدراسات العليا بباريس Ecole des Hautes Etudes à Paris ، والمستشار الجيولوجى للحكومة الصينية ، وهو غير ذلك أعظم عالم بيولوجى فى فرنسا . إن رحلاته الكشفية فى الصحراء الغربية وفى الحبشة وفى منغوليا —

لقد دخل الانسان في طور الصناعة والاجتماع socialisation . ولا تدل هذه الظاهرة على جبروت gigantisme الانسان أو رغبته في أن يحيا حياة طفيلية ، إنما لها معنى بيولوجي بعيد الأثر . إن السير العام للكون يعرف بنمو الحياة أى بارتفاع قوة الوعي montée de la conscience . الأب تيلار أنه استكشف القانون البيولوجي الأساسى وهو قانون الاختلاط Loi de complexité et de conscience . إن الوعي أو الشعور كان دائما موجوداً وهو خاصة عامة ملازمة للأشياء ، غير أنه لا يأخذ في التأثير إلا عند درجة محدودة . والحياة قد كتبت لها أن تعارض المادة ، وهى تنمو بقدر ما تتعقد المادة وتختلط . وانتظام الكائنات الحية انتظاماً آخذاً في النمو يقابله ظهور الوعي عند الأفراد ونضوجه ، حتى يمكننا أن نتمثل الكائن الحى مرموزاً إليه باهليج ellipse له بؤرتان إحداها للوعي والأخرى للاختلاط ، وكلاهما ينمو مع الآخر . ذلك هو القانون الأساسى . وهكذا انسلخت الحياة شيئاً فشيئاً عن الأرض وانفصل الوعي عن الحياة . وقد بلغت البؤرتان أقصاهما في

حيث استكشف بقايا الانسان الثرى عاش قبل التاريخ في الصين - ساعدته على تكوين نظرية متينة بعد أن جمع كل الوثائق الخاصة بأصل الانسان ، ثم وسع هذه النظرية شأن كل عالم واستخرج منها نظاماً شاملاً للكون يتضمن في الوقت نفسه مستقبل الانسان وماضى النجوم . وهو لم ينشر حتى الآن شيئاً رسمياً ؛ فالذين يحيطون بالبابا يكادون يعتبرونه خارجاً على الدين . ومع ذلك فكتباته المكتوبة بالآلة الكاتبة يقوم على أساسها التعليم في المدارس الأكليريكية الفرنسية . وهو منذ عام ينشر في مجلة « بيسيشى » *Psyché* سلسلة مقالات عن بحوثه العلمية والفلسفية .

« الاحساس بالأرض » *Le sens de la terre* . إن هذا العنوان العزيز على الأب تيلار يحمل معنى كبيراً . إن للمسيحي بطبيعة الحال مقدرة على إدراك الواقع ، *le sens du réel* بل إن نفرأ متعاقباً من الأنبياء المفكرين يبدأ من أشعياء حتى بسكال ، حاولوا أن يجعلوا الانسان يعرض عن كل ما ليس إدراكاً للواقع . غير أن المسيحي مدرك أيضاً للتطور البيولوجي ، ومن هنا فقط يستمد قوته .

الانسان . هل في الامكان أن يكون هناك ما هو أشد تعقيداً من البؤرة الأولى إلى بؤرة تعقيد الانسان ؟ نعم الظاهرة الجماعية Le phénomène social .

ليست الانسانية كومة جمعة agrégat ولكنها وحدة بنائية تختلف عن الأنواع الأخرى بأنها غير مفرقة أو متباعدة . إن الانسانية كلها تحمل صفات الانسان الفرد الذى هو كائن دماغى يدوى cérébro-manuel : فيده هي في الوقت نفسه الآلة ووسيلة النقل التى تحدث اتصالاً على الفور بين ملايين الأدمغة . ودماغه هو النفسية الكونية psychisme cosmique الناجمة عن تلك العملية ، والانسانية سى أيضاً إهليج ، له بؤرة تنظيم فى organisation technique وبؤرة وعى: وكثرة الطرق الفنية الحاضرة أبعد من أن تكون مصطنعة ، إنما هى استطراد للطبيعة ، بل هى أرق من الطبيعة . هل وصلت هاتان البؤرتان إلى حدما ؟ إن المقدرة التى يكتسبها الانسان على الطبيعة لا تكاد تكون محدودة ، فهو يعرف كيف يفصل الذرات ؛ ويستطيع أن يؤثر فى الكروموزومات Chromosomes التى تحمل الوراثة ، ثم هو يتعقب خفايا اللاشعور بواسطة التحليل النفساني .

ففى استطاعة الانسانية اليوم أن يحول البؤرة الأولى إلى بؤرة تعقيد واختلاط . فيتدخل عندئذ قانون الارتباط ويحدث ارتفاعاً فى النفسية البشرية psychisme humain وهذه الأخيرة على أية حال بدأت تزداد من حيث الكمية والنوع والقوة . وكان التطور قد بلغ مع الانسان أعلى ما يستطيع بلوغه ، فهو الآن يتخذ من الإنسان نقطة ابتداء وفى الوقت ذاته ينعكس على نفسه كما لا حظ هكسلى . كانت الحياة حتى اليوم ترتفع متحسنة مترددة ، أما الآن فليس فى إمكانها أن تسير على غير هدى . لابد للانسان أن يضع نصف عينيه هدفاً يتجه إليه . ومن هنا تتضح الحاجة إلى مذهب أو فلسفة idéologie وقد سدت الماركسية هذه الحاجة ولكن بطريقة غير وافية ؛ إذ أنها لم تر إلا بؤرة واحدة من الاهليج فهى تعتبر المجموع المنتظم كل شئ وبذلك تظل مادية . أما المذهب الحقيقى فيكون روحياً ، ومعنى ذلك أن البؤرة الروحية يجب أن تقود التنظيم الآلى . وهذا المذهب هو المذهب المسيحي . ففى سر التجسد incarnation تقدم لنا المسيحية مركزاً إلهياً غاص جزء منه فى العالم ، وعلى

يجب أن نذكر أيضاً ثلاث وقائع في عالم المسيحية ، تؤكد ما كان للأب تيلاردى شاردان من أثر توجيهي . فمذ عامين أخذت هيئة كاثوليكية تضم رجال الفكر الفرنسيين وتنتمي إلى اتحاد دولي ، تدرس مشا كل الوجودية في العلم والحضارة ، كما شرع الأطباء الكاثوليكيون ينشرون منذ الوقت نفسه « كراسات لاينك » *Cahiers Laënnec* وقد خصوها بمسائل الفروض الطبية *Déontologie médicale* كالإجهاض والتلقيح الصناعي *l'insémination* والتخلص من المصابين بداء عضال *l'euthanasie* الخ : إن هذه العودة إلى تعلم أخلاقي محسوس *Morale concrète* من الأهمية بمكان ؛ لأنها حدثت في الوقت الذي تتمحن فيه أسس الأخلاق بأزمة شديدة . ثم تكونت أخيراً جماعة الشيوعيين المسيحيين وأصدروا نشرة لتكون أداة اتصال ، يديرها مندوز رئيس التحرير السابق « الشهادة المسيحية » *Témoignage chrétien* وتعتبر هذه الجماعة آخر بادرة لاتقلاب مسيحي محتمل الوقوع

د. بيمية أنزبو

البشر أن يعملوا حتى يطفو المسيح تماماً . تلك هي أهم النقط في فلسفة الأب تيلاردى شاردان الذي يعتبر المسيحية فلسفة رفي لا فلسفة يأس ، والذي يرى أن حب الله لا يمنع الثقة بالانسان . ويمكننا أن نلخص هذه الفلسفة بقولنا إن الانسان إذا ملك زمام العالم ملك زمام نفسه . ويجب على المسيحية أن تظهر في موقف المسيطر المتسلط على المادة . فالوسائل الآلية قد تخلص الانسان بمقدار ما يخلصا تواضعه ، ويكفيه أن يشعر أنه سعى وجاهد حتى النهاية .

ماذا نقول عن سدى تأثير هذه النظرية ؟ إنها لم تعرف بعد إلا في وسط محدود من الأساتذة والعلماء والأطباء ورجال القانون والسياسة الذين اطلعوا عليها عن طريق محاضرات الأب تيلاردى التي كثر عددها هذا الشتاء في باريس . وقد استقبلت آراؤه استقبالا رائعا إلا من جماعة الوجوديين أمثال جبريل مارسيل الذين يجذون التجربة الداخلية *expérience intérieure* ويلعنون الحضارة ووسائلها الآلية .

نقلها عن الفرنسية إلياس نعمان حكيم